جدلية الذات والدهر في شعر ابن هانئ الأندلسي "قراءة في ضوء النقد الثقافي"

مرتضى رزاق هبل

الكاتب المسؤول

أ.م.د.سيد حسن محسن الفاتحي

أ.د.سيد مهدي مرتضى مسبوق

جامعة بو علي سينا /ايران

Researcher Murtaza Razak Hubal
responsible writer Prof. Dr. Sayed Hassan Mohsen Al-Fatehi Prof.
Dr. Mahdi Mortada Mesobek
Bou Ali Sina University, Iran

The dialectic of self and eternity in the poetry of Ibn Hani Al-Andalusi, a reading in the light of cultural criticismThe duality of self and eternity is one of the anti-cultural dichotomies, most of which emanates from the human self, whether it is the self of the poet himself or the self of the other, and sometimes the self mixes with itself and dialogues with it, or through the interactions that a person is exposed to. Ibn Hani employed this dialectic in his poetry, so he took a wide space in his His poetry, which led to the voice of self and eternity appearing behind the texts, and this was a style in many of his poems as a result of the pressures that the poet was subjected to in his time. It penetrates the deepest feelings in the recipient, and the poet employed some pronouns that relate to time, including related pronouns, and this shows the poet's position on time.Key words Dialectical, self and eternity, Ibn Hani Al-Andalusi.

الملخص:

تعد ثنائية الذات والدهر من الثنائيات الضدية الثقافية ،فغالبيتها تصدر من الذات الإنسانية سواء أكانت ذات الشاعر نفسه أو ذات الأخر وفي بعض الأحيان تمتزج الذات مع نفسها فتحاورها أو عن طريق التفاعلات التي يتعرض لها الإنسان وقد وظف ابن هانئ هذه الجدلية في شعره فأخذ مساحة واسعه في شعره مما ادى إلى أن يظهر صوت الذات والدهر خلف النصوص وكان ذلك اسلوبا في كثير من اشعاره نتيجة الضغوطات التي تعرض لها الشاعر في زمنه واستخدم الشاعر العبارات السهلة حتى يفهم جميع الأشخاص منها المعنى المميز وحتى يتم الأخذ بها ويكشف عن مشاعره الداخلية كي يستلهم من العاطفة والخيال ويخترق اعمق المشاعر في المتلقي ،كما أن الشاعر وظف بعض الضمائر التي تتعلق بالدهر منها الضمائر المتصلة وهذا يبين موقف الشاعر من الدهر .

الكلمات المفتاحية الجدلية ،الذات والدهر ،ابن هانئ الأندلسي

لا شك ان لجدلية الذات والدهر في شعرنا العربي قديمة وحديثة ومعاصرة وجود وامتداد في تجارب الشعراء جميعاً , على الرغم من ان جذورها تأصلت من شعرنا العربي القديم , وما الحديث والمعاصر الا امتداد له , فقد حول الشاعر القديم حزنه والمه الى مادة ابداعية , لذا شكلت مرجعية ثقافية يمكن للمحدثين ان يعودا لها في استقاء مادتهم الشعرية ، ومن خلال استقراء النماذج الشعرية في قصائد وأشعار الشاعر ابن هانئ نجد نوعين من اسباب جدلية الذات والدهر:

أولهما: أسباب ذاتية يتعرض لها الشاعر في حياته كالمرض أو الفقر أو الاغتراب (هناء شويخ: ٢٠١٧)..

وثانيهما: أسباب موضوعية تتصل بالواقع، عبر تجليات تلك الظاهرة في القصائد الشعرية، فلذا سوف نتناول بعض قصائد الشاعر ابن هانئ،التي توضح مظاهر جدلية الذات والدهر وتجلياته في العديد من أشعاره و قصائده، مع ربط تلك الظاهرة بمبرراتها وأسبابها سواء كانت تلك الأسباب موضوعية أم ذاتية، وإن القالب الفني هو الشعر الذي يصور العوالم الداخلية للشاعر، والشعر هو ترجمان لما يدور في وجدانه وخلده، بكل ما يختلجها من مشاعر وأحاسيس وعواطف، وبهذا أصبح الشعر انعكاسا لتلك الحالات النفسية والوجدانية، يبسط من خلاله الآراء والأفكار، والشاعر ابن هانئ يكشف بذلك عن ملامح ذاته الإنسانية فيسقطها داخل النص الشعري، بكل ما يعتريها من أفراح وأتراح وآلام وأحزان.يقوم ابن هانئ في قصائده الشعرية، بنسج لوحاته بحيث تتدفق من المعاني لتعبير عن المكنونات النفسية، التي كانت تمثل إشكالية نفسية، أدت فيها اللغة دورًا مهمًا لتحقيق تلك الذات الحالمة المتطلعة التي تكابد الصراع،وجاءت أشعاره؛ لتكون لوحة فنية نفسية بديعة، فيمتزج النسيب بالرحلة، وتمتزج المرأة بالصحراء وحيواناتها، وتظل ذكراها مع الواقع والمكان في صراع دائب بطريقة أقرب لحوار "الكونشرتو" وجدله المتصل بتلك الأحلام في الخيال الشعري و كذلك مستويات الدلالة في شعر الشاعر. (حسنة عبد السميع: ١٩٩٨م ص ١٣٢).

ومن الملاحظ على ابن هانئ أنه يذكر أدوات القتال من العدة والعدد، حيث لا يكتفي بهذه الأدوات و إنما يضيف إليها عوامل أخرى كتدخل الملائكة، وعوامل طبيعية، وسخر له الليل والنهار، وهي نادرة ومستحيلة في المعارك نجده بصورة احدى المعارك التي دارت بين الروم والمعز ذكر أن الله سبحانه وتعالى وكيف سخر له الملائكة لكي تنصره على أعدائه يقول ابن هانئ (الديوان ٢٥):

نزلَتْ ملائكةُ السماءِ بنصرهِ ... وإطاعة الإصباح والامساء

والفِلْكُ والفَلَكُ المدُار وسعدُهُ ... والغزوُ في الدأماء والدأماءُ

والدهرُ والأيامُ في تصريفِها ... والناسُ والخضراءُ والغبراءِ

وكذلك يصف الشاعر سفن المعز التي خاضت المعارك التي دارت بين المسلمين والروم في قصائد عديدة، وقد وصف السفن في إحدى القصائد التي يتحدث فيها المعركة البحرية، إذ يقول إن هذه السفن تجري في الماء رافعة قلاعها والرياح تدفعها بلطف، ويصفها بأنها لا مثيل لها في حسن صنعتها يقول في ذلك (شرح ديوان ابن هانئ: ٢٦):

ولكَ الجـواري المنشآت مواخراً تجري بـأمركِ والريـاحُ رخاءُ

والحامـلاتُ وكـلها محمـولةُ والناتـجات وكلـها عـذراءُ

عند التوقف مع مطلع تلك القصيدة لابن هانئ، من خلال ألفاظه ومعانيه، والتي قصدها العقل الشعري له والتي أفرغ فيها الشاعر كل معاني الجدلية والصراع القائم، وعمق دلالته النفسية، ليعبر بها عن طبيعة الصراع، واستهلالها الشعري يدفعنا إلى التأكيد على عملية الكشف النفسي الجدلي، لقد كشف ابن هانئ دون أن يشعر عن مكنوناته بلا وعي في النفسية المخبوءة لديه.

وذلك بألفاظ تبدو غير ظاهرة إلا من خلال الفهم النفسي له، فتراه يتذمر من الدهر وإبعاده لأحبته عنه و إن لم يكن ابن هانئ من الشعراء المتذمرين في العادة من الدهر ، ولكنه قد ظهر في شعره لمحات من تلك الجدليات، فيقول (ابن هانئ، ١٩٨٠م: ص ١١):

ما تحُسُن الدنيَّا تديمُ نعيماً فهي الصَّناع وكفتّها الخرقاء

فهو يذم الدنيا و كذلك ينعتها بالخرقاء التي لا تحسن عمالها التي قد فرقته , عن الأحبة.

و يذكر ابن هانئ موكب المعز في بعض الأعياد مثل عيد الفطر. ويصف ما قد شاهده، ويذكره في عيد النحر. (والشاعر قد مكث نحو أربع سنوات ينظم الشعر في المعز. يضمنه عواطفه نحوه وكذلك نحو دولته) (خفاجة: الادب الاندلسي: ٤٤٦).

فمن بين القصائد القصيدة التي مدح فيها المعز وهناه بعيد الفطر، إذ يقول (شرح ديوان ابن هانئ: ٤٧٩– ٤٨٤):

قُمْنَ في مأتمٍ على العشُاقِ ولَبْسنَ الحدادَ في الأحداقِ

وبكيْنَ الدماءَ بالعنم الرطـ بـ المقني وبالخدودِ الرقاقِ

ومنحْنَ الفراقَ رقةَ شكوٍ هُنَّ حتى عشقتُ يومَ الفراقِ

ومعَ الجيرةِ الذينَ غدوا دمعَ طليقٍ ومهجةً في وثاقِ

وجلا الفطرُ مِنْه عُن نبوي أبيضَ الوجه أبيضَ الأخلاقِ

نجد القصيدة (صادرة عن ذوق مترف يناسب حياة الشاعر المترفة في ظلال الخليفة) (خفاجة: ص ٤٤٧) وكذلك يقول في تلك القصيدة نفسها واصفاً تلك المظلة التي قد كان الامراء و الخلفاء يستعملونها في مواكبهم في أيام الأعياد، إذ يقول:(نقص مصدر)

فوقـه خيـطةُ اللجينِ تهـادىَ بيـدي كل بُهمـةٍ مُصداقِ

فالمظلة عندهم كانت محط اهتمام و كذلك عناية , هذا لكونها تعلو رأس الخليفة و هي التي تشمل على اثني عشر شوركاً و تلك ميزة خاصة بالأمراء إذ تتفاوت من أمير إلى غيره.

ومن قصائد التهنئة لدى ابن هانئ التي قالها في المعز حينما قضى على ابن الخرز الثائر في المغرب، والتي مطلعها (الديوان ٥٩٣):

كدأبِكَ ابن نبيَّ الله لمَ يْزَلْ قتلُ الملُوكِ ونقلُ المُلكِ والدولِ

ابن الفرارُ لباغ أنتَ مدركة لأمةٍ ملءُ كفيها من الهَبلِ

وهكذا تبدو لغة الشاعر قوية تبرهن على خلفية كبيرة وخيالٌ في اختيار المفردات والمعاني

وهذه تبدو واضحة و ليست رمزية ولا موحية وذات صدى مذهل وحاد...، يقول ابن هانئ (الديوان: ص ٧٥):

سرى وجناحُ الليلِ افتم افتخُ ضجيعُ مهادٍ بالعبيرِ مضمَّخُ

فحـييتُ مُزورُّ الخيالِ كأنهُ محجَّبُ أعلى قبةِ الملكِ أبلخُ

زفرات ليست ببعيدة، إنها جزء لا يتجزأ من رؤاه ومن همومه وغنائياته الجدلية المبثوثة في كل سطور قصائده وما تحمله من اشجان , بحكم نضوجه النفسي إلا أن يتوجه للآخر مخاطبا باثاً تلك الأشجان وهذه الهموم بأشكال مختلفة ومتنوعة من الخطاب، وإن طبيعة جدلية الذات والدهر في فترة زمنية ما، ويصبح مستقلاً كما يتحول إلى الحالة العاطفية الشاملة، كذلك تتفاقم بتأثيرات كثيرة خارجية ؛ لكنها حالة عاطفية عامة و لكنها تصبح جاهزة لكي تصبح بدايات تلك ذات الطبيعة الجدلية، فجدلية الذات والدهر بمعناها النفسي والعاطفي ، ولذلك فإن الشاعر ابن هانئ قد ينتقل من وادٍ إلى آخر من تلك الجدليات.

يعدُّ المطلع من أهم أجزاء القصيدة الشعرية ؛ وذلك لأنه "أول ما يواجه السامع من القصيدة الشعرية، وهو بذلك الاعتبار يحتل تلك الأهمية الأولى من عناصرها، و لا بد أن يراعي الشاعر ذلك ، فهو بمثابة العنوان للقصيدة، أو المدخل إليها، ولذلك نلحظ أن ابن هانئ قد يحشد فيه أجود ما لديه من تلك المعاني و كذلك حسن الصياغة ليجذب السامع أو القارئ، و قد يدفعه إلى التأمل و كذلك السياحة في دلالتهما العميقة و البسيطة و لا يقف عند مجرد ذلك اللفظ الظاهر للقصيدة.

ولقد كان الأحرى بالشاعر أن يتكيف مع المجتمع بكل عيوبه، ويحاول أن يتواءم نفسيًا أو أن يحدث توافقًا، فالتقليد مبدأ أساسيًا وقانونًا عامًا، يسري على مختلف مستويات التفاعل الاجتماعي. وفي ضوء ذلك يقرر أن الأفكار والمشاعر التي يستوحيها الفرد من محيطه هي التي تحدد نشاطه النفسي (بدر الدين عامود: دمشق ٢٠٠١ م، ص ١٤٥).

ولقد كان ابن هانئ يعيش صراعاً نفسياً و قد كان عليه كما يقول علم النفس أن ينصاع لتلك التقاليد المجتمعية، وينافق ويخضع له و البيئة المحيطة به، ؛ حتى يستطيع أن يحقق ما تطمح إليه نفسه، لكن كل هذا لم يحدث، فاختار الشاعر أن يصارع ذلك كله، وأن يجتهد في التغلب في كل تلك الصراعات، من دون الخضوع والاستسلام للتقاليد المجتمعية. وعن طريق أحلام اليقظة الشعرية وإشباع تلك الرغبات أو تعديل الإحباط و كذلك التوتر، (كمال أبو شهدة: ١٩٩٧م: ص ٥٠: ٥٢)- وما كان من نتاج عن الكبت، انطلقت اللغة الشعرية؛ لتعبر عن ابن هانئ في شعره، والتي قد جاء استهلالها نفسيًا من خلال اللوحات الفنية و اللغوية الكاشفة له و كذلك الصادقة في الوقت نفسه، يقول ابن هانئ (الديوان – ص ١٥٣):

ما عذْرُكمْ أنْ لا تطـيبَ فروعُكمْ ولقَدْ رسختُمْ في الســـــماءِ أُصولا
أعطتْكُمُ شمُ الأنـــــوفِ مقادةً وركبتُمُ ظَهْرَ الزّمـــــانِ ذَلولا
خَلّدْتُمُ في العبشـــمِيّة لَعْنَـةً خُلقَتْ وما خَلقُوا لهـــــــــــا تعجـــيلا
راعَتْهُمُ بكمُ الـــــبُروقُ كأنّمَا جرَّدتموها في الســـــحابِ نصـُولا
في مَن يظُنّونَ الإمـامةَ منهُمُ إنْ حصّلتْ أنســـــــاَبهمْ تحصيلا

وهكذا كل شيء يولد صغيرًا، ثم يكبر، باستثناء جدلية الذات و الدهر في بداياتها تكون كبيرة، ثم تعود فتصغر ".(نقص مصدر)

وتلك إحدى الجمل الشائعة عن جدلية الذات و الدهر، وهي ظاهرة في الأدب العربي القديم و كذلك الحديث، وترتبط في الغالب أكثر بالشعر. وجدلية الذات و الدهر في الأدب قديمة قدم الإنسان المبدع و المبتكر، كما نجد بعض تلك التجليات في التكوين النفسي لدى الشاعر، وكذلك في أن جميع البشر يتألمون و يعانون من جدلية الذات و الدهر بنسب متفاوتة، ولأسباب كذلك مختلفة فالشاعر يحاول أن يبقي تجربته الشعرية تتشكّل في مداها الواسع الرائع الرحيب، وذلك من خلال تلك المعاني الدينية عند ابن هانيء التي قد تشير إلى الحوادث التاريخية الّتي تبعث وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم – « تزداد تلك المعاني الشيعية عنده في القوّة، حتي تبلغ أوجها في تلك الفترة الإفريقية حين يصير الشاعر الرسمي، فيعلى كلمة الدولة، ويشيد بمجد الأئمةْ وبأحقيتهم بخلافة المسلمين» (اليعلاوي، محمد، ص ١٢٨)

كما نلاحظ أنّ من أهمّ تلك المعاني في مدائحه هي المعاني المذهبية وكذلك شعارات سياسية، و الحملات على أعداءِ الفاطميين و كذلك خصومهم... «ومن معاني المدح الواجب التي من طرقها الكرم، هو كرم واسع و دائم لا يحدّ و لا يعدّ و لايشبه إلّا البحر الزاخر الفياض (إسماعيل سامعي, ٢٠١٤:ص ١٤٦).

والشعراء يتبارون في هذا الإطار ويتسابقون وراء تلك الصورة الجديدة و التي تمثل التشبيه النادر و كذلك الإفتراض الغريب لا سيماً و أن تلك العادة قد اقتضت أن لا يذكروا عطية بعينها و لا مقدراً محدّداً من تلك الدراهم و الدنانير، لأنّ التحديد بمبلغ يجعل لهذا الكرم حدوداً معينة و ينزله إلى مستوي تلك الكمية المعدودة , المعروفة، و هذا مما لا يليق بالممدوح، فلذلك قد يبقي الكرم في أجواءِ مطلّقه و كذلك سماويّة , إذا لجأ الشاعر إلى هذا التشبيه المعتاد بالماء الدّافق، فهو تصرّف خاص به » (اليعلاوي، محمد، ص ٢٢٢).

ويقول ابن هانئ (الديوان، ص ١٨٥):

تاللهِ لوكانتِ الأنْواءُ تُشْبِهُهُ
مآمـــــرَّ بُؤسٌ على الدُّنيا

ولا قَنَط ابن هانيء يتعمق في معانيه و كذلك أفكاره كما يبالغ أحياناً فيها أو قد يكون في احيان اخرى حادّ في أفكاره، و تلك الحدّة قد تكون مقبولة أحياناً مثل قوله في سيفه: (نقص مصدر)

لي صارمٌ وهو شيعّيٌ كحامِلِه يكادُ يسبقُ كَرّاتي إلى البَطلِ

إذا المُعِزُّ معُز الدّينِ سلّطَهُ لم يرتّقِبْ بالَمنايا في مُدّةَ الأجل

تلك المبالغة قد تكون مقبولة ؛لأنّها مخفّفة بقوله « يكاد» في البيت الأول كما في سبق السيف صاحبه إلى العدّو و كذلك في البيت الثاني حيث يقول: إنّ سيفه لا يرتقب مدّة الأجل ليقضي على العدّو، لأن تلك الأجال غير معروف وقتها و كذلك زمانها و ذلك جميل و مقبول » (هيكل، أحمد، ص ٢٣٦).

نلحظ أن شعر ابن هانئ بعيد كل البعد عن تلك الأبنية السوريالية , و الرموز الصوفية التي تهيمن أحياناً على مساحة كبيرة من الشعر ذي الطابع الديني، فهو قريب كل القرب من تلك الغنائيات و كذلك الوجدانيات، كما أن من الاستثارات التراثية وكذلك الحس الوطني الظاهر في غالبية اعماله من خلال الأسى، كما أن هناك أسباب لجدلية الذات و الدهر منها : ذاتية، قد يتعرض لها الشاعر عبر حياته، كالمرض أو الفقر أو في الاغتراب، وهناك تلك الأسباب الموضوعية التي تتصل بهموم الأمة، وما فيها من أزمات و مشكلات متعددة سواء كانت سياسية أو غيرها، وقد يصل الدارس لهذه الظاهرة في الشعر إلى بعض تلك النتائج، منها شيوع الظاهرة الجدلية كما في الذات و كذلك الدهر، بنسب متفاوتة قد تختلف من شاعر إلى آخر، و ديوان ابن هانئ يعد وثيقة فنية تبرهن في غالبيتها على الإجادة الفنية و المبدعة.

وفي ضوء ما سبق يمكن القول: أن ابن هانئ الاندلسي جسد جدلية الذات والدهر في اشعاره فاختار لها الالفاظ التي تحمل أبعادا ولآلية , ومعانٍ تتفجر منها الانبعاثات النفسية , وصورا شعرية نبين تلك العلاقة , لان الذات الانساني او الذات الشاعرة دائما ما ترى في الدهر اخر له قوته , وسلطته , وسطوته , فصروفه , وتقلباته قد تكون عامل سلبٍ للذات فتشعر بضعفها وخوفها وقلقها مما يضره الدهر في قادم الوقت .

الخاتمة وفيها أهم النتائج:

١-اعتمد الشاعر في ثنائيات الذات والدهر على استعمال الضمائر المتصلة وقد شغلت مساحات واسعة في شعره

٢-وظف الشاعر الكثير من النماذج عن الدهر وقد يكون ذلك اسلوبا أراد الشاعر فيه يبين عن حجم الضغوطات التي كان يتعرض لها

٣-اختفى عند الشاعر صوت الانا وهذا أسلوب اتبعه الكثير من الشعراء

المصادر والمراجع

-جغرافية الجدال في الفكر والفلسفة والفن ،شوقي الموسوعي، ط١ ،دمشق ،٢٠١١م

٢-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت نحو ٦٩٥هـ)

٣-تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، دكتور إحسان عباس المتوفى : ١٤٢٤هـ .

٤-ديوان ابن خفاجة- ت سنده. المؤلف. أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي. عدد الأجزاء. ١. رقم الطبعة. ١. بلد النشر. لبنان.

٥-ديوان ابن هاني الأندلسي ; مؤلف: محمد بن هاني الأزدي الأندلسي ; الناشر: دار بيروت .

٦-مقالة :على أحمد محمد العبيدي ، المصدر: مجلة دراسات ،الناشر: جامعة الموصل – مركز دراسات الموصل ; تاريخ: ٢٠١٠ م.

٧-ملامح الشعر الأندلسي:. الناشر: عمر الدقاق ،دار الشرق العربي ، تاريخ النشر: ٢٠٠٦/٠١/٠١

٨-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ) ،المحقق: إحسان عباس ،الناشر: دار صادر – بيروت١٩٩٤ م.